

البيئة ومرترقة «العلم»

من ينكر تغير المناخ اليوم، أنكر مزار التدخين بالأمس

□ محمد التفراوتي *

كشفت الأستاذة نجيب صعب تواسوا براغماتيا لأحد مؤلفي كتاب "الاحترار العالمي الذي لا يمكن وقفه... كل 1500 سنة" قصد تمرير رؤية فكرية تعكس التوجه العام لنظرية تغير المناخ. ومرد هذا التواطؤ موجه بالأحرى لا محالة من طرف لوبي رأسمالي لم يجد بدا من صد شحنة هجمة علماء المجال البيئي سوى تدبير تقارير مستعينة بـ"علماء" براغماتيين للتأثير على الرأي العام أو للرد على حملة آل غور الناجحة للتحذير من عواقب تغير المناخ. والغريب المريب في الأمر هو أن نفس المؤلف الرئيسي لكتاب المناخ، الدكتور فرد سنغر، كان المشرف "العلمي" على تقرير نشر عام 1994، والذي ينكر وجود صلة بين "التدخين السلبي"، أي آثار دخان التبغ على الناس المحيطين بالمدخن، وأمراض القلب والرئة والسرطان. وقد استخدمت شركات التبغ، يوضح الأستاذ صعب، هذا التقرير لمواجهة الأبحاث العلمية لووكالة البيئة الأميركية، التي أوصت بمنع التدخين في الأماكن العامة لوقف آثاره على غير المدخنين.

"وكما يعلم الجميع، فقد أصبحت المضار الصحية للتدخين السلبي حقيقة علمية معترفاً بها، على الرغم من تقارير سنغر وغيره." ويقول الأستاذ صعب في نفس السياق: "ماذا أصدق كل هؤلاء العلماء عوضاً عن تصديق مؤلفي هذا الكتاب؟ لأن الحجج الانتقائية التي يعرضونها دفعني إلى اكتشاف تاريخ علمي مشبوه."

وعقب ناشر ورئيس تحرير مجلة "البيئة والتنمية" في افتتاحية عدد أبريل-نيسان الجاري على كتاب "الاحترار العالمي الذي لا يمكن وقفه... كل 1500 سنة". لمؤلفيه، فرد سنغر ودينييس أيفري، وللذان يعتمدان نظرية تقول إن هناك دورة طبيعية تمتد 1500 سنة، يتبدل فيها المناخ بين البارد والحار. يقولون ونحن الآن على أبواب دورة الحر. في الظاهر، قد نفهم أن الاستنتاج واحد، وهو أن المناخ يتغير نحو حرارة أعلى. لكن الفارق أن الكتاب يقول إن هذه ظاهرة طبيعية لا يمكن وقفها، ولا علاقة للنشاطات الإنسانية بها. إذا، لا بأس في أن نواصل الأنماط الاستهلاكية المنفلتة، فنزيد انبعاثات ثاني أكسيد الكربون من المصانع والسيارات ومحطات توليد الطاقة، ونقطع الغابات، ونبنتهم موارد الطبيعة بنهم. فالمنح سستغير في أي حال. ليس هذا فقط، وفق سنغر وأيفري: فزيادة انبعاثات ثاني أكسيد الكربون ستقيد الزراعة، وارتفاع درجات الحرارة سيطلق عمر الناس ويدعم التنمية. هذا الكتاب يتوجه أساساً إلى المستهلك الأميركي، رداً على الحملة الناجحة للتحذير من عواقب تغير المناخ، التي أطلقها نائب الرئيس السابق آل غور.

وذكر نجيب بالرد العلمي السابق على نظريات الكتاب واستنتاجاته، والذي كان دقيقاً وواضحاً، في التقرير الرابع للجنة الحكومية الدولية حول تغير المناخ، الذي عمل عليه آلاف العلماء حول العالم، وأجمعوا للمرة الأولى على أن المناخ حتماً يتغير، والسبب الرئيسي هو النشاطات الإنسانية وليس عوامل الطبيعة. وقد أيدت هذا الاستنتاج الهيئات العلمية المستقلة والرسمية في الولايات المتحدة نفسها، التي كان بينها، حتى فترة قريبة، من ينكر وجود إثبات علمي على أن الانبعاثات من الصناعة والنقل وتوليد الطاقة هي المسؤولة عن الاحتباس الحراري.

فقد ذكرتني استنتاجاتهما بالآلاف الدراسات العلمية التي صدرت خلال السنوات الستين الأخيرة، يفيد الأستاذ صعب، لتنكر وجود صلة بين التدخين والإصابة بأمراض القلب والرئة والسرطان، وتبين أنها مموله من "كارثيل" مصنعي التبغ. اليوم أصبح الأمر محسوماً، ولم تعد العلاقة بين التبغ والأمراض موضع نقاش، بل أصبحت المسألة محصورة في معادلة أنه إذا أردت أن تدخن وتموت أو تغفل صحتك، فهذا قرارك. وقد تم منع التدخين في الأماكن العامة في دول العالم المتحضرة، وانضمت



الأميركية، تحت غطاء العلم، مثل: مؤسسة واشنطن للقيم في السياسة العامة، والمركز الدولي للبيئة العلمية. والواضح أن دور سنغر في جميع الحالات كان لعب دور "حصان طروادة" لانكار الحقائق العلمية تحت غطاء العلم. لكن "ورقة التوت" تسقط سريعاً حين تراجع التاريخ المشبوه له ولزملائه، والجهات التي تمول مؤسساتهم وتقاريرهم، إذ تظهر ارتباطاتهم أنهم "بنادق يرسم الايجار".

وتساءل الأستاذ صعب بمرارة، "أما بعد، فماذا يريد سنغر وأيفري والذين يروجون لكتابهما؟ هل نفهم الرسالة دعوة إلى الاستمرار في الأنماط الاستهلاكية المنفلتة، التي تقوم على الهدر المفرط للطاقة والموارد؟"

وجادل الأستاذ صعب مناقشاً بالدرس والتحليل ما جاء في الكتاب أو "فضيلة الشك" حسب وصفه في كون المناخ يتغير، ولكن لعوامل طبيعية مرتبطة بدورة الـ1500 سنة العادية. مانحاً إياه "نصف الحق" مفترضاً أن هناك "نصف شك" أيضاً ذلك بأن النشاط الإنساني يساهم في تسريع هذا التغير وزيادة حدته.

"ماذا تخسر الإنسانية إذا أخذنا "نصف الشك" هذا في الاعتبار، فاعتمدنا الاستخدام الرشيد والنظيف لمصادر الطاقة التقليدية، وطورنا مصادر الطاقة النظيفة والمتجددة، واعتدنا في استهلاك الموارد الطبيعية بدل استنفادها؟ وهذا ليس لتخفيف الانبعاثات فقط، بل للحفاظ على مواردنا المحدودة، حماية للأجيال المقبلة."

مجيباً في نفس السياق بأن اعتماد هذه الخيارات سيوفر فرص عمل جديدة ويؤمن مستقبلاً أفضل للحياة على الأرض. والخاسر الوحيد بعض الشركات الجشعة التي ترى أن استمرارها في الربح الشخصي السريع أكثر أهمية من استدامة الربح العام واستمرار الحياة على الأرض.

وأوضح الأستاذ صعب بجلاء تخوف سنغر وأيفري من الآثار المدمرة لتدابير الحد من انبعاثات غازات الاحتباس الحراري على الاقتصاد الأميركي. "حتى اليوم، لم تكن الولايات المتحدة جزءاً من المساعي العالمية لمواجهة تغير المناخ، لكنها استمرت في سياسات السوق الاستهلاكية المفتوحة والنمو المتفلس. فهل منع هذا الاقتصاد الأميركي من الانهيار المفجع الذي نعاينه اليوم؟"

وهل ستعاني الإنسانية الويلات إذا تحولت صناعة السيارات الأميركية من إنتاج الدينوصورات التي تتجرع الوقود بنهم وتبث أطنان الغازات، حفاظاً على ما يُسمى "طريقة الحياة الأميركية"، إلى السيارات الصغيرة النظيفة المقتصدّة في الوقود والقليلة الانبعاثات؟

وماذا يُضّر منتجي النفط لو حُفّضت كمية الإنتاج وارتفعت الأسعار، وبقي بعض الاحتياطي في باطن الأرض ثروة للأجيال المقبلة؟

قد نفهم لجوء بعض مدعي العلم إلى الشعارات الديماغوجية والجدل الشعبي لاستقطاب التمويل من مؤسسات ذات مصالح خاصة، أو لترويج كتاب يخالف الإجماع العلمي. لكن من غير المقبول أن تتبنى بعض المؤسسات العربية هذه الإدعاءات، بلا مناقشة.

نرجو أن تراجع الهيئات الرسمية في الدول المنتجة للنفط التاريخ العلمي لمثل هؤلاء الكتاب، قبل أن تتبنى نظرياتهم.

* كاتب مغربي مختص بشؤون البيئة

الامراض الخطيرة... وقد استطعنا كشف مجموعة كبيرة من الهيئات ذات الأسماء البراقة التي ارتبط بها فرد سنغر، وكلها يتمويل من مجموعات استخدمتها لمحاولة تمرير أجنداتها في الإدارة

وعلاقتها بتغير المناخ بكونه حين فكر بالرابط بين المسألتين، قام ببعض الأبحاث، ليكتشف ما كان يفعله الدكتور فرد سنغر تحت ستار "العلم" منذ عام 1994 وهو الذي ينكر آثار دخان التبغ على الناس المحيطين بالمدخن، ومختلف

إليها بعض الدول العربية، على اعتبار أنه لا يحق للمدخن الذي لا تهتم صحته أن يعرض الآخرين للخطر رغماً عن إرادتهم. وعلل الأستاذ صعب دواعي التحدث بالتفصيل عن هذا الموضوع بالتفصيل